سليم أبو جبل*

التقاء العربية والعبرية: بين الترجمة والهيمنة

دعت إحدى شركات الإنتاج الإسرائيلية خلال شهر شباط من هذا العام، الفنانين والمنتجين والكتاب والصحافيين العرب إلى لقاء عام في مدينة حيفا، وذلك إثر فوزها في مناقصة أجرتها وزارة الاتصالات الإسرائيلية على قناة عربية تجارية جديدة. لم يعرف المدعوون نوعية هذا اللقاء، فظن البعض أنه مؤتمر صحافي تعقده الشركة، وظنه البعض الآخر لقاء يتم فيه اقتراح برامج على المنتجين. لكن الشركة أرادت من خلال هذا اللقاء أن تعرف رأي المدعوين بما يجب أن تكون عليه القناة الجديدة، وما هي متطلبات المجتمع العربي وحاجاته، وكيف لها أن تنافس باقي المحطات العربية بدءا بقناة المستقبل اللبنانية،LBC MBC ، والجزيرة.

ورغم كون رئيس الشركة هو الشخص الوحيد الذي لا يجيد اللغة العربية مقابل أكثر من مائة من الحضور العرب، إلا أن النقاش والحوار دار باللغة العبرية طوال ساعتين على الأقل، وقد نجح الجميع في التعبير عن متطلبات المجتمع العربي الثقافية، السياسية، الفنية والترفيهية باللغة العبرية! واعتبر أغلب المتحدثين أن على القناة العربية التجارية الجديدة أن تنافس المحطات الفضائية العربية، وترغم المشاهد العربي المحلي على متابعتها.

تواجه اللغة العربية في الواقع الفلسطيني تحديًا من اللغة العبرية التي أصبحت شريكًا فاعلاً في اللغة المحكية، ومما قد يساعد في تثبيت هذه الظاهرة رغبة السكان الأصليين بتبني لغة المحتل، فإن عددًا لا يستهان به من الأفراد يفضلون الكتابة والتعبير عن أنفسهم باللغة العبرية ويعجزون عن ذلك بلغة الأم العربية، وهناك من قد يختلف مع هذه التسمية ويلغي صفة اللغة الأم عن اللغة العربية الفصحى ليحيلها إلى اللغة المحكية كونها أول لغة نتعلمها، فتأتي الفصحى في المقام الثاني، ولكن، لا زلنا حتى في هذه الحالة نعاني من أزمة اللغة الدخيلة، وافتتان المثقفين وبعض الكتاب باللغة العبرية رغم ضعفها وعمرها القصير، وأكاد أقول تقزمها أمام لغتنا العربية المحكية والفصحى على حد سواء.

الغالب والمغلوب

من المؤكد أن الأمر أبعد عن كونه عجزا في اللغة العربية، إنها رغبة غير معلنة،

*كاتب وشاعر من الجولان

هل نسير في اتجاه إيجاد لغة ثالثة محكية عند الفلسطينيين؟ هذا ما حذر منه الدكتور عبد الرحمن مرعي عندما قال:"هذه الظاهرة آخذة بازدياد مطرد، وقد تنتج في نهاية المطاف لغة وسطى وهي خليط من الفصحى والعامية والعبرية يطلق عليها اسم "لغة الهيبروآراب". وتضع لغة أو نهج الهيبروآراب أقدامها الثقيلة فوق أسماعنا، وتستطيع مع الوقت أن تفرض نفسها وثقلها على الواقع الثقافي المعاش، وهي بذلك تحتل الفلسطيني بقفازات ناعمة احتلالا جديدًا.

قد لا ندركها وتتمثل برغبة المغلوب بمحاكاة الغالب حسب نظرية المفكر العربي ابن خلدون الذي يفسر الأمر على أن المغلوب يحاول أن يستعير من الغالب الأقوى صفاته وسلوكه ولغته وملبسه ليظهر في مظاهر القوة، ويقول في كتابه الشهير "المقدمة": "المغلوب مولع أبدًا بالغالب في شعاره، وزيّه، ونحلته، وسائر أحواله وعوائده، والسبب في ذلك؛ إن النفس أبدًا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه".

يمكننا فهم نظرية ابن خلدون عبر مثال بسيط، فقد لجأ الإنسان إلى ارتداء جلود الحيوانات المفترسة ليكتسب قوة جسدية يراها في النمور والفهود ويريدها لنفسه، وهي عادة لا تزال تمارس في الطقوس الدينية لعدد من القبائل الأفريقية.

وللمعلومة التاريخية فقد قاد المثقفون والسياسيون عبر التاريخ هذه الظاهرة أكثر من غيرهم بحيث كانوا أول من يستعمل ويتبنى لغة الغزاة والمحتلين، وقد يكون المهاتما غاندي أكبر مثال، كونه قاد العصيان المدني ضد الإنكليز في الهند وحقق الاستقلال دون حاجة لاستعمال السلاح، ولكنه من جهة أخرى لم يحارب اللغة الإنكليزية كما حارب البضائع الإنكليزية فكان يستعمل اللغة الإنكليزية في خطبه، وسمح للغة الإنكليزية أن تتغلغل في أوساط الهنود كلغة رسمية للبلاد، وقد يعود هذا إلى كونه قد تعلم المحاماة في لندن ووقع في غرام اللغة الانكليزية.

الشعب الفلسطيني الأول

ولتبيان أثر اللغة المحتلة على اللغة الفلسطينية المحكية، لا بد من الاعتراف بالاختلاف بين الفلسطينيين من بقعة إلى أخرى، وكأن سبعة وخمسين عامًا بعد النكبة قد جعلت من الفلسطينيين عدة شعوب في المعنى المجازي، ولذلك سوف ألجأ إلى تسمية سكان المنطقة المحتلة عام ١٩٤٨ بالشعب الفلسطيني الأول، وبذلك يكون سكان المنطقة المحتلة عام ١٩٦٧ في الضفة الغربية والقطاع شعبًا فلسطينيًا ثانيًا، ويكون الفلسطينيون في مناطق اللجوء العربي شعبًا فلسطينيًا ثالثًا، والفلسطينيون في بلاد المهجر شعبًا فلسطينيًا رابعًا.

أفتعل هذا التقسيم من أجل تبيان الأثر الحاصل على اللغة العربية لدى الفلسطينيين تبعًا لدوائر التأثير المحتملة، وما يهمنا في هذا السياق المنطقة الواقعة تحت السيطرة الإسرائيلية بالكامل، ووقوع الشعب الفلسطيني الأول تحت التأثير البالغ لمفردات الإسرائيلي، وبخاصة اللغة العبرية.

فيكفي أن نحاول تخيل ما سوف تكون عليه اللغة العربية في محيط الشعب الفلسطيني الأول بعد مرور سنوات طويلة. فها نحن وفي الوقت الحاضر نسمع بعض الذين يدخلون المفردات العبرية خلال حديثهم بنسبة كبيرة قد تزيد عن الخمسين بالمائة، وتتفاوت النسب من فئة إلى أخرى ومن منطقة إلى أخرى، بحسب التأثير الناتج عن الاختلاط ونوعية العمل وموقع السكن والثقافة المكتسبة، ويحتج البعض على أن اللغة العربية لا تقدم مفردات بديلة عن تلك التي يتعود على استعمالها من العبرية. والذي يحدث في نهاية الأمر فعلا هو مزيج ما بين اللغة العربية المحكية واللغة العبرية، تسمعه الأذن الحريصة التي تعيشه يوميًا، وتراه أمرًا بالغ الخطورة.

لغة الهيبروآراب

هل نسير في اتجاه إيجاد لغة ثالثة محكية عند الفلسطينيين؟ هذا ما حذر منه الدكتور عبد الرحمن مرعي عندما قال: "هذه الظاهرة آخذة بازدياد مطرد، وقد تنتج في نهاية المطاف لغة وسطى وهي خليط من الفصحى والعامية والعبرية يطلق عليها اسم "لغة الهيبروآراب". وتضع لغة أو نهج الهيبروآراب أقدامها الثقيلة فوق أسماعنا، وتستطيع مع الوقت أن تفرض نفسها وثقلها على الواقع الثقافي المعاش، وهي بذلك تحتل الفلسطيني بقفازات ناعمة احتلالا جديدًا.

اللغة الإعلامية

تفرض وسائل الإعلام الإسرائيلية نفسها من خلال برامج الإذاعة والتلفزيون، وقد تأثر الصحافيون والإعلاميون العرب في المنطقة المحتلة عام ١٩٤٨ وعلى مدى سنوات طويلة بوسائل الإعلام العربية من أصول إسرائيلية، كراديو إسرائيل باللغة العربية والتلفزيون الإسرائيلي. وفوق هذا تأثرت اللغة التي يستعملها الصحافيون العرب من اللغة العربية المكتسبة عبر المناهج الدراسية التي وضعت بأيدي يهود من أصول عربية، وعرب عملوا بشكل واضح على تمرير مادة تدريسية بعينها، فجاءت لغة ركيكة كثيرة الأخطاء.

هذه اللغة الإعلامية المكتسبة لم تلق متابعة جادة ولم يحاول الإعلاميون العرب في معظم الأحوال أن يعيدوها إلى أصولها العربية، أو خلق بدائل لها. نجحت وسائل الإعلام الإسرائيلية وعلى مدى سنوات طويلة باستعمال مصطلحات مثل: الوسط العربي، عرب إسرائيل... دون إي إشارة للأصول الفلسطينية

لهذه الفئة السكانية، وهكذا قامت الصحف العربية بتبني هذه الصيغ، وبدورها لم تفطن الهيئات والمؤسسات الوطنية المسئولة إلى استبدال هذه التعريفات بما يتناسب مع وضعية العرب الفلسطينيين.

من مخلفات التلفزيون الإسرائيلي

وأقدم مثالا من اللغة المتسللة من مخلفات التلفزيون الإسرائيلي باللغة العربية: في البرامج والأفلام والمسلسلات المترجمة ترد كلمة " خاصته.. خاصتهم.. خاصتنا " في الترجمة المنقولة عن الإنكليزية والعبرية، ويتضح هذا التأثير حين نجد هذا التعبير في مفردات الصحافة العربية فيقول أحدهم: " هذه الأرض خاصتنا.. " بدل أرضنا، وهذه " الأفكار خاصتنا " ، بدل أفكارنا. ويعود أصل هذا التعبير إلى مناهج تعليم الإنكليزية والعبرية للعرب كما يرد في النص الآتي من منهاج تعليم الانكليزية على سبيل المثال: " نضع كلمة my قبل الاسم لتعني خاصتي أو your لتعني خاصتك أو his لتعني خاصته أو her لتعني خاصتها. فنقول مثلاً This is my book: الكتاب خاصتي ".

ولكن المعنى الصحيح للكلمة يرد في تفسير أنجيل يوحنا حسب التفسير التالي لكلمة خاصته " الكلمة المترجمة خاصته، ترجمتها الحرفية " بيته " وفي العهد القديم استعملت خاصته عن الهيكل، وهي أيضا تفيد الملكية " .

يبدو أن مترجم برامج التلفزيون الإسرائيلي إلى العربية، ولغته الأم ليست اللغة العربية على الأرجح، قد ظن كتب تعليم الإنكليزية والعبرية مرجعًا في استعمال كلمة خاصته، وليقوم الإعلاميون العرب بتبني الصياغة من بعده!!

تشويه اللغة عن قصد

تقودنا المتابعة الدقيقة لنصوص الترجمة إلى العربية من على شاشة التلفزيون الإسرائيلي، أو متابعة اللفظ العربي لمذيعي راديو إسرائيل وبعضهم يهود من أصول عربية إلى الاعتقاد بأن اللغة العربية وضعت في نهاية سلم أولويات هذه المؤسسات، واحتل التوجيه المقصود مكان الصدارة في بث البرامج المعدة خصيصًا للعرب في الداخل والخارج.

يدل هذا على أن المؤسسة الإسرائيلية الجاهلة عن قصد، خلفت آثارها الواضحة على الكتابة الصحافية والإعلامية، وحتى الأدبية لدى الصحافيين العرب. ويقودنا هذا إلى الإيمان بضرورة إلزام المؤسسات الإعلامية الإسرائيلية الناطقة بالعربية باستعمال لغة عربية سليمة، أو بضرورة مقاطعتها، وهو ما يحدث لحسن الحظ كتحصيل حاصل نتيجة كثافة المحطات الفضائية والإذاعية.

يقول الأستاذ الدكتور خليل عودة من جامعة النجاح الوطنية في نابلس في دراسة له حول الآثار السلبية للاحتلال على اللغة العربية في فلسطين: "كثيرًا ما يصاحب احتلال الأرض احتلال النفوس، ولا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار التقارب بين العربية والعبرية في نواح كثيرة فتُفرض المفردات العربية التي يختارها الإسرائيليون بدقة في خطابهم السياسي الموجه إلى العرب، ويُجعل من هذه المفردات شائعة في لغة الإعلام الإسرائيلي المهيمن على الإعلام العربي، مما يعني استسلام العرب، ليس فقط إلى المفردات العبرية، وإنما المفردات العربية التي يختارها الإسرائيلي " .

كلمة "أصلانية" كمثال

لاحظت في الفترة الأخيرة استعمال كلمة أصلانية في الصحف والمجلات ومواقع الانترنيت العربية، وقد يقصد بها الكاتب " أصلي " من كلمة أصل. وبعد القيام بعملية بحث محدد في شبكة الانترنيت عبر محرك البحث غوغل وياهو وصل مجمل عدد مرات ورود الكلمة في مواقع الانترنيت العربية إلى ٥٥ مرة، وكان البحث على النحو التالي: " أصلانية " ، ثم " اصلانية " من غير الهمزة على الألف، ثم " أصلانيه " بوضع الهاء محل التاء المربوطة، ثم " الأصلانية " مع أل التعريف، وذلك بسبب الأخطاء الإملائية الشائعة. وهذا يعني أن الكلمة تكاد تكون غير مستعملة على نطاق واسع، ويعود سبب ذلك كونها وردت في المواقع العربية التالية: صحيفة بانوراما، موقع المشهد الإسرائيلي، موقع مدى الكرمل، موقع أروقة التابع للمؤسسة العربية لحقوق الإنسان، موقع عرب ٤٨، المركز الفلسطيني للإعلام، مركز عدالة، جمعية بلدنا... وهي مواقع يكتب بها مثقفون وإعلاميون محليون..وعدد منهم من الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧. والسؤال المطروح هو: هل مصدر هذه الكلمة العربية هو الإعلام الإسرائيلي باللغة العربية؟ وهل نشكك في سلامتها اللغوية؟

مجمع اللغة المحكية

ومن البوادر السلوكية للتأثير الإعلامي الإسرائيلي استعمال بعض الصحافيين العرب للهجة الصحافة العبرية بشقيها الوقح والفج، فرغم ما تحويه الصحافة العبرية من مهنية في العمل، فإنها تطلق أحكامها على الآخر بطريقة خالية من الأدب والذوق. هذا السلوك يتبناه الصحافيون العرب دون غيره على أنه سلوك ديمقراطي!!

يبدو أن الخطر لا يأتي من اللغة العبرية الدخيلة فقط وإنما من اللغة العربية التي يعلمنا إياها مفسدو اللغة، والأخطر من استعمال هذه المفردات هو استعمال الأفكار والتعريفات التي تطلقها وسائل الإعلام الإسرائيلية التي يمكن اعتبارها علامة مؤشرة على تسلل الفكر المؤسساتي الإسرائيلي إلى دماء ثقافتنا ولغتنا ووجودنا العربي.

لا بد من دق ناقوس الخطر من غير إلقاء اللوم على المؤسسة الإسرائيلية فقط، وعلى أقل تقدير لا بد من المطالبة بتتبع الحالة ودراستها وفهمها، والطموح المشروع هو أن يكون هناك مجمع لغة عربية يتابع حال اللغة العربية المحكية في فلسطين التاريخية، ويضع الفلسطينيين أمام واقع اللغة التي يستعملونها.